جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

كتابة السيرة الذاتية بين النظرية والتطبيق عند إحسان عباس

Writing an autobiography between theory and practice according to Ihsan Abbas

إعداد
د. عصام حسين إسماعيل أبو شندي
أستاذ الأدب والنقد – قسم اللغة العربية – كلية التربية والآداب – جامعة تبوك

(العدد الثالث والأربعون)
(الإصدار الثاني- مايو)
(الجزء الثالث (١٤٤٥هـ /٢٠٢٤م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) 2536- 9083
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٢٤/٦٢٧١م

كتابة السيرة الذاتية بين النظرية والتطبيق عند إحسان عباس

عصام حسين إسماعيل أبو شندي

قسم اللغة العربية، كلية التربية والآداب، جامعة تبوك، المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني: esashendy@gmail.com

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى إجراء موازنة بين الجانبين النظري والتطبيقي من جهد الأديب والناقد العربي الكبير المرحوم إحسان عباس في كتابة "السيرة الذاتية"، إذ تمثل جهده في الجانب النظري في كتابه "فن السيرة"، الذي وضعه عام ١٩٥٦م، وفصّل فيه الحديث بإسهاب عن الدوافع التي تدعو كتاب السير الغيرية والذاتية لوضعهما، وكذلك الغايات والشروط الفنية لكتابتهما والصفات الفنية لكل منهما وأصنافهما. ثم وضع قبيل وفاته بسنوات سيرته الذاتية "غربة الراعي" عام ١٩٩٦م ، التي كانت بمثابة تطبيق لتلك العناصر الفنية التي كان تحدث عنها من قبل، ومن هنا جاءت فكرة هذه الورقة لإجراء الموازنة بين هذين الجانبين، فيما يتعلق بالسيرة الذاتية خاصة.

الكلمات المفتاحية : كتابة، السيرة الذاتية ، النظرية ، إحسان عباس.

Writing an autobiography between theory and practice according to Ihsan Abbas

Issam Hussein Ismail Abushind
Department of Arabic Language, College of Education and Arts, University of Tabuk, Kingdom of Saudi Arabia.

Email: *esashendy@gmail.com*

Abstract:

Years before his death, he wrote his autobiography, "Gorbat Erraie," in 1996, which was an application of those artistic elements, which he talked about before, this was the reason for writing this scientific paper, to make a comparison, between two aspects, especially for the autobiography . This study aims to make a comparison, between the two aspects theoretical and applied, in the effort of the great Arab writer and critic Ihsan Abbas, in writing the prose genre "autobiography", his effort was in the theoretical aspect in his book "fann Esseirah", Which he wrote in 1956, that he spoke in detail, about the motives that encourage writers to write biographies, and the goals and technical conditions related to their writing, and the technical characteristics and types of each .

Keywords: *Writing, biography, theory, Ihsan Abbas.*

مقدمة

يُعد إحسان عباس(*) – رحمه الله – واحدا من أفراد النخبة المبدعة الفاعلة في العصر الحديث، لما قدمه من جهود مميزة في خدمة ثقافة الأمة العربية الإسلامية وأدبها في أكثر من مجال، من تحقيق لمخطوطات من التراث، وترجمة لكتب مهمة من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية، إلى وضع عدد غير قليل من المؤلفات النقدية والتاريخية، فضلا عن الإشراف على الرسائل الأكاديمية ونشر البحوث العلمية والمقالات في العديد من الأوعية، ومن بين هذه المؤلفات كتابه "فن السيرة" الذي ظهر أول مرة عام ١٩٥٦م، وتحدث فيه بإسهاب وتفصيل عن هذا الجنس النثري، من حيث تاريخه ومفهوم فرعيه "السيرة الغيرية" و"السيرة الذاتية"، والدوافع والغايات التي تدعو كتاب السير لوضعهما، وكذلك الشروط الموضوعية والفنية لكتابتهما والعناصر الفنية لكل منهما وأصنافهما.

---

* إحسان عباس، من أبرز أعلام الثقافة العربية في النصف الثاني من القرن العشرين، نظرا لجهوده المميزة والثرة في تحقيق التراث العربي، ذلك أنه حقق مجموعة من عيون التراث العربي، مثل : "التذكرة الحمدونية" لابن حمدون، و"الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لابن بسام الشنتريني وغيرها، بالإضافة إلى جهوده في ترجمة عدد من الكتب المهمة إلى اللغة العربية، مثل "فن الشعر" لأرسطو طاليس، و"النقد الأدبي ومدارسه الحديثة" لستانلي هايمن بالاشتراك مع محمد يوسف نجم، وله العديد من الكتب المهمة مثل "تاريخ النقد الأدبي عند العرب" وغيره من الكتب والبحوث العلمية والمقالات، لا سيما في مجال النقد الأدبي .

ولد في قرية "عين غزال" بفلسطين عام ١٩٢٠م، وتعلم حتى تخرج في "الكلية العربية" بالقدس عام ١٩٤١م، ثم واصل تعليمه العالي حتى نال شهادة الدكتوراه في كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٥٤م، ثم بدأ تدريسه الجامعي في "كلية غوردن التذكارية" في السودان، ثم في جامعة الخرطوم، وبعدها انتدب للتدريس في الجامعة الأمريكية في بيروت عام ١٩٦١م، إلى أن انتقل للعيش في العاصمة الأردنية عمان منذ عام ١٩٨٦م، حتى توفي فيها رحمه الله عام ٢٠٠٣م.

ومما يلفت الانتباه في هذا السياق أن عباسا كتب سيرته الذاتية "غربة الراعي"، بعد مرور أربعين عاما على تأليفه لكتاب "فن السيرة"، أي عام ١٩٩٦م قبيل وفاته بأعوام؛ ومن هنا جاءت فكرة هذه الورقة، التي تتمثل في دراسة الجانبين النظري والتطبيقي لفن "السيرة الذاتية" على وجه الخصوص، حيث يتمثل الجانب النظري من جهود عباس في هذا السياق في كتابه "فن السيرة"، في حين يتمثل الجانب النظري في سيرته الذاتية "غربة الراعي"، بحيث يتم عرض المفهومات والشروط والعناصر الفنية التي تحدث عنها عباس في كتابه "فن السيرة"، على سيرته الذاتية "غربة الراعي"، بغية الموازنة بين الجانبين النظري والتطبيقي، وقياس مدى التزامه في الجانب التطبيقي بما تحدث عنه في الجانب النظري، لذلك فسينقسم البحث لمحورين : أولهما يتعلق بالجانب النظري وثانيهما بالجانب التطبيقي، آملا الوصول إلى نتيجة علمية مثمرة ومفيدة بحول الله تعالى.

تمهيد

استفاض إحسان عباس في كتابه "فن السيرة"[١]، في الحديث عن العناصر الفنية التي تتطلبها كتابة "السيرة الفنية"، ودرس فيه تطورها في الأدب العربي، عبر مراحل تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ابتداء من ولادة السيرة في حضن التاريخ، بتأليف سيرة الرسول الكريم ﷺ، وانتهاء بوضع السيرة في شكلها الفني المقبول في عالم النقد الحديث بنوعيها : "السيرة الغيرية" و"السيرة الذاتية"، حيث وضع في هذا الكتاب العناصر الفنية التي يتطلبها في السيرة بنوعيها، حتى تكتسب صفة "السيرة الفنية"، واستشهد أثناء ذلك بعدد كبير من الأمثلة من السير القديمة والحديثة العربية والغربية، مبينًا اتصاف تلك السير في بعض جوانبها بالعناصر الفنية التي يتطلبها، أو عدم اتصافها بها، وبعد مرور أربعين عاما من إصداره كتابه "فن السيرة"، وضع سيرته الذاتية "غربة الراعي"[٢] عام ١٩٩٦م، وبذلك يكون قد مارس في الكتاب الأول مقاربة "الجانب النظري" من كتابة هذا الجنس الأدبي النثري، ثم عاد ومارس "الجانب التطبيقي" في كتابه الثاني .

لذاك فسوف ينقسم الحديث في هذه الورقة إلى محورين : يتعلق أولهما بالجانب النظري وثانيهما بالجانب التطبيقي، مع تخصيص الحديث باتجاه "السيرة الذاتية" من دون "السيرة الغيرية"، انطلاقا من أن فكرة هذه الدراسة تقوم على الموازنة بين الجانبين النظري والتطبيقي، من جهد إحسان عباس في هذا السياق.

المحور الأول: الجانب النظري .

تقع "السيرة" في مفهومها العام عند إحسان عباس، في موقع وسط بين "التاريخ" من ناحية و"القصة الفنية" من ناحية أخرى وتتقاطع معهما، وهو لا يورد هذا التعريف بشكل مباشر، وإنما يُستشف من ثنيّات كلامه أثناء حديثه عن العناصر الفنية التي يتطلبها في السيرة، فهي تُبنى بشقيها : الغيرية والذاتية، في نظره، على الحقائق المستمدة من أحداث التاريخ التي وقعت فعلا، وتُبني كذلك باختيار كاتب السيرة وترتيبه للأحداث، وإدراجه لبعضها وإغفاله لبعضها الآخر على حسب ما تقتضيه الضرورة الفنية، حيث يضرب عباس مثالا هنا سيرة "الملكة فكتوريا" لمؤلفها "لتن ستريتشي" ويورد في هذا السياق قول "فرجينيا وولف" عن هذه السيرة، الذي ترى فيه، أن ستريتشي قد استغل " كل قدرة المترجم في الاختيار والترتيب وتشبث بكل قوته بعالم الحقائق "[٣] ومن ثم يعلق عباس على كلامها قائلا : " وسيظل هذا من أهم العناصر في السيرة، لأنه يمثل الحد القوي بين انجذابها مرة إلى التاريخ ومرة إلى القصة المتخيلة، والوثوق من هذه النقطة يخفف من الزلل أو الالتواء، أو الانطلاق وراء الخيال، كما يخفف من جفاف الحقيقة ويسمح بالتخلي عن حقائق غير ضرورية "[٤] .

والخلاصة إذن أن السيرة في نظر عباس فن وأدب، ولكنها بحكم موقعها الوسط هذا أدب ذو حالة خاصة، حيث يقول في هذا السياق : " وخلاصة القول : إن السيرة فن لا بمقدار صلتها بالخيال، وإنما لأنها تقوم على خطة أو رسم أو بناء، وعلى ذلك فهي ليست من الأدب المستمد من الخيال، بل هي أدب تفسيري "[٥] بحكم تقاطعها مع التاريخ واستمدادها الحقائق منه " وهذا النوع من الأدب كالأدب الذي يخلق خلقا، من حيث إن صاحبه معنى بغاية محدودة، تهديه في اختياره وترتيبه للحقائق "[٦] المستمدة من التاريخ، لكن من ناحية ثانية فإن مؤلف السيرة " كالروائي والقاص أيضا يحاول أن يكشف عن الصراع بين بطل سيرته والطبيعة، وصراعه مع الناس

الآخرين ومع نفسه، وهو يحاول أن ينقل إلى القراء حقيقة ذات قبول عام، ولكنه لا يستطيع أن يحكم خياله في أجزائها، وبدلا من أن يقف موقف الخلاق، تراه يقف موقف المستكشف المفسر لأشياء وأشخاص وجدوا في الحقيقة "[٧]، فهي بذلك تقع في موضع وسط بين التاريخ والأدب، والكاتب المجيد هو الذي يستطيع أن يحفظ لسيرته التوازن بين الركنين، وكما يقول محمد عبد الغني حسن، فكلما " كانت الترجمة – في قسميها الذاتي والغيري – أكثر أناقة وعناية بالثوب البلاغي الذي تُلف فيه كانت أقرب إلى الأدب منها إلى التاريخ، إلا أن الإسراف في الصورة الأدبية التي يعرضها المترجم، والمبالغة في الفن الأدبي والروائي الذي يضفيه المترجم على الشخصية التي يترجم لها، قد يبعده كثيرًا عن الحقيقة والواقع الذي يجب أن يهدف إليه "[٨] .

أما مفهوم "السيرة الذاتية" خاصة في نظر عباس، فإنه يضمّنه في جواب عن سؤال يطرحه بخصوص الوقت الذي يكتب فيه صاحب السيرة سيرته الذاتية، حيث يقول في الجواب عن هذا السؤال : " إن كل سيرة، فإنما هي تجربة ذاتية لفرد من الأفراد، فإذا بلغت هذه التجربة دور النضج وأصبحت في نفس صاحبها نوعا من القلق النفسي، فإنه لا بد أن يكتبها "[٩]، بمعنى أن عباسا يركز في هذا الفهم، على أنها (تجربة ذاتية لفرد) وحال بلوغها حد النضج، فإنها تستحق حينئذ أن تُخط في سيرة ذاتية، وهذا التعريف لا يبعد عن التعريفات الحديثة لفن السيرة الذاتية وإنما يدور في سياقها، إذ يعرّفها فيليب لوجون بقوله : " إنها حكي استعادي نثري يتسم بالتماسك والتسلسل في الأحداث، يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخالص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة "[١٠]، وبذلك فـ"السيرة الذاتية" في نظر عباس هي معادل موضوعي للتجربة الذاتية لمؤلفها، سواء اتسمت هذه التجربة بالنجاح أو بالفشل، حيث يقول بهذا الخصوص : " وكاتب السيرة الذاتية قريب إلى قلوبنا، لأنه إنما كتب تلك السيرة من أجل أن يوجد رابطة ما

بيننا وبينه، وأن يحدثنا عن دخائل نفسه وتجارب حياته حديثا يلقى منا أذنا واعية، لأنه يثير فينا رغبة في الكشف عن عالم نجهله، ويوقفنا من صاحبه موقف الأمين على أسراره وخباياه "[١١] .

وهنا فإن القارئ يستطيع أن يلمس أن عباسا، تناول فن "السيرة الذاتية" من خمسة جوانب، هي :

أولا : الدافع -

يلاحظ من يقرأ فكر إحسان عباس فيما يخص "الدافع" لكتابة السيرة الذاتية و"الغاية" منها، أن هذين الركنين يشكلان طرفي معادلة، في سياق من الحالة النفسية لكاتب السيرة الذاتية، بمعنى أن هناك حالة من الارتباط المتوازن بينهما، ذلك أن "الدافع" منوط بوصول تجربة صاحب السيرة في الحياة إلى درجة من النضج والاكتمال، حيث يعبر عباس عن هذا الطرف من المعادلة بقوله : " والناس مهما يطل عليهم الأبد وتختلف أحوالهم هم أحد رجلين : رجل وصل إلى حيث يؤمل وانتصر على الحياة وصعابها، وأحسن التخلص من ورطاتها وشعابها، ورجل كافح حتى جرحته الأشواك وأدركه الاخفاق . وكلا العاملين، أعني الوصول والخيبة، يبلغان بالتجربة حد النضج على شرط واحد : هو اكتمال التصور لأطراف هذه التجربة ورؤيتها عند التطلع إلى الماضي على أساس من نظرة ذاتية خاصة "[١٢]، وإذن فالدافع مرتبط بالوصول إلى هذه الحالة من النضج، المبنية على القناعة لدى الكاتب باكتمال تصوره لأطراف تجربته في الحياة، حيث يتابع عباس كلامه السابق رابطا اكتمال رؤية الكاتب لمكانته في الحياة، بوجود القاعدة الفلسفية لديه فيما يخص حقائق الوجود الأخرى، حيث يقول : " ولا يرى الإنسان مكانه بوضوح إلا إذا أصبحت تجاربه ذات وحدة متكاملة، وكانت لديه قاعدة فلسفية يتقابل بها وجهًا لوجه مع حقائق الوجود الأخرى؛ وهذا فرق أصيل بين الفنان وغيره وهو سر تفرده في الحياة، كما أنه سر سعادته أو شقائه، أعني ما يصيبه من وصول أو خيبة "[١٣]، وما يذهب

إليه عباس هنا مشابه – في ظني – لما يذهب إليه نورثروب فراي حيث يقول : " ما يوحي بمعظم السيرة الذاتية، هو دافع خلاق أي قصصي، لاختيار تلك الأحداث والتجارب من حياة الكاتب، التي تشكل معا نسقا متكاملا "[١٤]، وخلاصة الفكرة التي يفهما الباحث من كلام عباس السابق، أن "الدافع" يتمثل في الحالة النفسية التي يصل إليها كاتب السيرة، التي تحفزه لكتابة تجربته في الحياة، لا سيما في المراحل المتأخرة منها .

ثانيا : الغاية -

أما "الغاية" فإنها تمثل الطرف الثاني من المعادلة، التي يعبر عنها عباس بقوله : " والغاية الأولى التي تحققها السيرة الذاتية هي الغاية المزدوجة التي يؤديها كل عمل فني صحيح، أعني تخفيف العبء على الكاتب بنقل التجربة إلى الآخرين، ودعوتهم إلى المشاركة فيها؛ فهي متنفس طلق للفنان يقص فيها قصة حياة جديرة بأن تستعاد وتقرأ، وتوضح موقف الفرد من المجتمع، كما تمنحه الفرصة لإبراز مقدرة فنية قصصية إلى حد كبير، وتريحه نفسيًا لأنها تستند إلى الاعتراف "[١٥]، والخلاصة في هذا الموضع أن الحالة النفسية أو المزاج النفسي الذي يجد كاتب السيرة نفسه في غماره، يؤدي به إلى هذه الغاية التي تتمثل في الكتابة بغية تخفيف العبء عن كاهله وإشراك القراء من ثم فيما يحس به، ومن هنا فإن كتابة السيرة الذاتية " تحقق الغاية المرجوة التي يؤديها العمل الفني، إذ أنها مراح رحب لكاتبها، يتخفف فيه من ثقل التجارب التي خاض غمارها بنقلها من داخل نفسه إلى خارجها، وهو بهذا يعرض خبراته على الآخرين بغية مشاركتهم له فيها، ويتحدث إليهم عنها في صدق وصراحة وأمانة وتجرد، مصورا واقع حياته الملموس الذى شكله ماضيه، بما كان يزخر به هذا الماضي من نقائص وفضائل وعيوب ومآثر، وبما كان يحمله من زلات وحسنات "[١٦] .

ثالثا : الشروط -

ويجد القارئ كذلك أن إحسان عباس يتحدث عن خمسة شروط، يجب توفرها في السيرة الذاتية حتى تأخذ شكلها الفني الصحيح، وهي كالتالي :

١ : أن يكون صاحب السيرة، شخصا ذا تميز واضح في ناحية من نواحي الحياة، حيث يقول عباس : " وإذا كانت السيرة عامة تتطلب لرواجها أن يكون بطلها شخصا ذا تميز واضح في ناحية من النواحي، فإن هذا الشرط أساسي في السيرة الذاتية بخاصة، إذ لا بد لشمول الرغبة فيها، أن يكون صاحبها ذا صلة دقيقة بأحداث كبرى، أو أن يكون ممن لهم مشاركة في بعض تلك الأحداث، أو أن يكون ذا نظره خاصة في الحياة، وحقائق الكون تجعله سابقا لأوانه، متقدما على أبناء عصره، أو ذا غاية كبيرة أو صاحب أخطاء جسيمة، فإن الجواذب التي تجذب الناس إليه إنسانية أولا، ظاهرة ساطعة ثانيا "[١٧]، لأن أذواق المتلقين لن تتقبل السير التي لا يتوفر فيها هذا الشرط، وإن كُتبت من دون توفره فإنها سُيحكم عليها بالموت، كما يقول عباس متابعا كلامه السابق : " ولذلك يموت كثير من السير الذاتية، لأنها لا تستطيع أن تحيا في نفوس الناس، لا من جانبها الإنساني ولا من جانبها الفني "[١٨] .

٢ : أن يكون الصراع الداخلي في نفس صاحب السيرة، والخارجي في علاقته مع الناس، على قدر من الشدة، على أن يبنيه كاتب السيرة على أساس من التطور الذاتي في داخل النفس وخارجها، هذا الجانب الذي يصفه يحيى إبراهيم عبد الدايم بقوله : " ثم من أبرز ملامح الترجمة الذاتية إلى ما ذكرناه "تصوير الصراع" بضروبه المختلفة، تصويرا يطلعنا الكاتب من خلاله، على دخائل نفسه، وأثر أحداث الخارج في حياته النفسية والشعورية والفكرية "[١٩]، حيث يذهب عباس في هذا السياق إلى أن بقاء السيرة الذاتية " منوط بحظ صاحبها نفسه من عمق الصراع الداخلي، أو شدة الصراع الخارجي، ولا بد لها كي تكتب، من أن يتجسد

فيها الماضي بخيره وشره لا على شكل ذكريات متقطعة ولا على شكل صور خارجية شاهدها الكاتب في الناس والأشياء، بل على شكل من التطور الذاتي في داخل النفس وخارجها، ومن ثم قد تجيء السيرة الذاتية صورة للاندفاع المتحمس والتراجع أمام عقبات الحياة، وقد تكون تفسيرا للحياة نفسها، وقد يميل الكاتب إلى رسم الحركة الداخلية لحياته، مغفلا الاهتزازات الخارجية فيها إهمالا جزئيا، وقد تكون مجرد تذكر اعترافي، موجه لقارئ متعاطف مع الكاتب، وقد تمتزج هذه العناصر على أنصباء متفاوتة "[٢٠]، ومن ثم يركّز عباس كلامه عن هذه الجوانب، متابعا حديثه السابق بشكل أكثر عمقا ودقة بقوله : " فإذا كان الشخص الذي يترجم لنفسه، ذا منزله خاصة في المجتمع، وكان يرمي إلى إنشاء هذا التعاطف بينه وبين القارئ، وأقام سيرته في بناء فني لم يغفل فيه قيمة الأسلوب وتأثيره، وكان ماهرا في الربط بين الصورة الداخلية لحياته ومنعكساتها في الخارج، فهناك تتم سيرة ذاتية مكتملة، وليس ثمة من سبب يحول دون تلقيها بالقبول، أما إذا اقتصر الكاتب على تدوين مذكراته أو يومياته، أو وجه سيرته لتصوير الأحداث أكثر من تصوير " ذات " فإن عمله يلتقي مفهوم السيرة الذاتية وليس هو"[٢١] .

٣ : اكتمال تصور كاتب السيرة الذاتية لتجربته، اكتمالا مبنيا على القناعة بأهميتها، حيث إن وصول كاتب السيرة أو خيبته في الحياة، في نظر عباس، يصلان بتجربته كاتبها إلى حد النضج " على شرط واحد، وهو اكتمال التصور لأطراف هذه التجربة، ورؤيتها عند التطلع إلى الماضي، على أساس نظرة ذاتية خاصة، ولولا هذا الشرط لكان كل إنسان قادرا على أن يكتب سيرته الذاتية "[٢٢]، أما الشخصيات الكبيرة فإن سيرهم " دروس في التربية والاجتماع وهي خلاصات مركزة لتجارب الإنسانية، في مجالات شتى ينتفع بها النشء ويستذكرها الرجال في مختلف سنيهم وأعمارهم "[٢٣] .

٤ : الموضوعية في نظرة كاتب السيرة إلى نفسه، وهذا جانب خطير لأن السيرة الذاتية تختلف عن السيرة الغيرية، بقيامها على الجانب الذاتي في نظرة الكاتب إلى نفسه، وهي بذلك " مظنة الإغراق والمغالاة غالبًا، وشرك للحديث عن النفس والزهو بها وإغلاء قيمتها، ولكنها إذا اعتدلت كانت أصدق ما يكتب عن رجل وأكثره انطباقًا على حياته "[٢٤]، لذلك فيجب، كما يرى عباس " أن يكون كاتب السيرة الذاتية موضوعيا أيضا في نظرته لنفسه، بمعنى أن يتجرد من التحيز لنفسه، وهو يذكر موقعه من الناس والحوادث، ولا ينساق وراء غرور النفس، وتعلقها بذاتها وحبها لإعلاء شأنها، وتنقصها من أقدار الآخرين "[٢٥]، ومن هنا فقد عاب إحسان عباس على كل من سبنسر ونيتشه إعلاءهما من قيمة نفسيهما في كتابتهما لسيرتيهما، رغم إيمانه بقيمة كلتا الشخصيتين وقدرهما[٢٦] .

٥ : أن تكتب السيرة الذاتية في مرحلة عمرية متأخرة لسببين يذكرهما عباس، وهما، أولا : أن الكاتب " قد يكتبها قبل أن تتضح له نتائج تطور خطير في حياته، وقد يكتبها قبل أن تقف مبادئه في الحياة واضحة جلية لعينيه "[٢٧]، والثاني : أن هناك خطرا آخر قد يجني على بعض التجارب الفنية، التي من الممكن أن يبدعها كاتب السيرة بعد هذه الكتابة، إذ إنه قد " يحشد في سيرته تجارب كان من الممكن أن يفيد منها في بناء عدة قصص، وفي خلق عدة شخصيات، وفي نظم عدد من القصائد، أو استغلالها في أي فن أدبي آخر"[٢٨]، ويضرب عباس مثالا لذلك ما وقع لطه حسين بقوله متابعا كلامه السابق : " وهذا ما وقع للدكتور طه حسين في "الأيام" فإنه قد "جمّد" تجاربه دفعة واحدة، حتى كان هذا الكتاب – على أنه من أوائل كتبه – أغنى كتبه وأحفلها وأكثرها إمتاعا، وأقربها إلى العمل الفني، لا لأن الدكتور طه حسين، يحسن هذا النوع وحده من الفن الأدبي، بل لأنه تحول بقلمه إلى نقل واقعه كله أو أكثره على هذه الصورة، فهو يتجنب – قدر استطاعته – أن يعيد هذا الواقع أو تلك التجارب، إذا كتب قصة أو مقالة من بعد "[٢٩] .

رابعا : الصفات -

يجيز الباحث لنفسه هنا أن يستخدم مصطلح "الصفات"، اعتمادا على أن إحسان عباس استخدم هذا المصطلح، في الإشارة إلى "العناصر" التي يتطلبها في السيرة الذاتية، حتى تُعد ناجحة أو عظيمة من وجهة نظره، حيث يقول : " ثم إن الصفات التي تجعل السيرة الذاتية عظيمة ليست هي نفس الصفات التي تجعل السيرة الغيرية عظيمة "[٣٠]، حيث يلاحظ القارئ هنا أن هذه "الصفات" التي يتحدث عنها عباس، تتعلق في مجموعها بـ"شخصية" صاحب السيرة الذاتية، من حيث قدرته على بثّ هذه الصفات وبعثها في السيرة، أو عدم قدرته على ذلك، الأمر الذي يتم بناء عليه الحكم بمقدار نجاحه في كتابة السيرة من عدمه . وبشيء من التفصيل والترتيب يمكن القول إن "الصفات"، التي يشير إليها عباس في السيرة الذاتية حتى تعد ناجحة، هي:

١- نسبة الذاتية، حيث يتناول عباس الفروق بين السيرتين الذاتية والغيرية، ويصل إلى أن من الفروق المهمة بينهما "نسبة الذاتية"؛ أي مقدار تمحور السيرة حول شخصية صاحبها وتناولها لأدق متعلقاته، حيث يقول هنا : " ونجاح المترجم الذاتي يقاس بنسبة الذاتية فيما كتب، أما نجاح من يكتب سيرة غيره فيقاس بمقدار تجرده وغيريته "[٣١]، ولعل تنامي الإحساس بالذات عند الإنسان العربي عامة والمثقف خاصة، هو ما حدا إلى الإقبال على كتابة السيرة الذاتية بكثرة ابتداء من القرن العشرين، هذا الجانب الذي تشير له تهاني شاكر بقولها : " لقد شهدت الساحة العربية في مطلع القرن العشرين، أحداثا واضطرابات وأطماعًا استعمارية، كفيلة باستثارة وعي الإنسان العربي بذاته، مما ساعد على نمو الشعور بالذات، والإحساس بالفردية التي حثت الأديب على كتابة سيرته الذاتية. لذلك أنتج القرن العشرون للأدب العربي الكثير من السير الذاتية، التي شاعت كتابتها في مختلف الأقطار العربية "[٣٢] .

٢- درجة الصدق في السيرة الذاتية، إذ يقول عباس في معرض الإجابة عن سؤاله الذي طرحه حول إمكانية تحقق الصدق التام في السيرة الذاتية : " فالصدق الخالص أمر يلحق بالمستحيل، والحقيقة الذاتية صدق نسبي مهما يخلص صاحبها في نقلها على حالها؛ ولذلك كان الصدق في السيرة الذاتية "محاولة" لا أمرًا متحققًا (...) فنحن لا نذكر من عهود الطفولة إلا القليل، وبعض ما نذكره أحيانًا نحاول إخفاءه لأنه لا قيمة له، وما دمنا ننشئ فنًا فإن عملية الاختيار هي التي تتحكم فيما نعمله، فنحذف ما تحذفه ونبقي ما تبقيه، خضوعا لتلك الحاسة الفنية فينا، وهناك أشياء نستحيي من ذكرها كبعض العلاقات الجنسية (...) ثم إن الذاكرة لا تنسى فحسب بل هي تفلسف الأشياء الماضية وتنظر إليها من زوايا جديدة، وتهدم وتبني حسبما يلائم تجدد الظروف وتغيرها، وتجد التعليل والمعاذير الأشياء سابقة لأنها في عملية كشف دائم "[٣٣]؛ وهو التوجه ذاته الذي يذهب له أندريه موروا بقوله : إن " السيرة الذاتية لا تُحرف فقط من خلال النسيان، إنها تُحرف كذلك من خلال التأثير الطبيعي للرقيب الذي تمارسه الروح على الأشياء التي لا تستريح لها، ولنرجع إلى حكاية طفولة ما فعندما يكون الموقف مخزيًا أو غير مرض، فيكاد يكون من المستحيل أن يروى بأمانة، فنحن نسترجع الذكريات التي يلذ لنا استرجاعها، ونحن نلقي إلى النسيان تلك التي تجرحنا "[٣٤]، وإذن فعباس يرى أن مقدار شجاعة صاحب السيرة الذاتية في ذكر الحقائق عن شخصيته، من الصفات التي توفر للسيرة قدرا كبيرا من النجاح، الحقائق التي تتعلق بالماضي أو الشؤون الخاصة أو الجنس وما شابه، لكن توفر صفة الصدق الخالص هذه أمر شبيه أو قريب من المستحيل للأسباب التي أوردها، لذلك فإنه يصل في النهاية إلى قناعة مفادها أنه ليست " هناك سيرة ذاتية تمثل الصدق الخالص "[٣٥] .

٣- روح الثورة في السيرة الذاتية، وقد جاءت إشارة عباس لهذه الصفة، من خلال حديثه عن افتقار السير الذاتية في الأدب العربي لهذه الروح، من وجهة نظره، حيث يقول : " إن تلك الطبيعة الثورية القلقة الجياشة (...) ليست من المميزات الواضحة في السيرة الذاتية في الأدب العربي، فإن طبيعة الاستسلام أغلب على هذا اللون من الأدب، حتى عند أصلب شخصياته، وأشدها تمرسًا بالمصاعب"[٣٦]، ويمثل عباس لذلك بابن خلدون " على صلابة عوده، لأنه إذا واجه المشكلة تنحى عنها لتمر، أو اختار الهجرة لئلا يضعف إزاءها، وهو يُعزل ثم يُولى ثم يُعزل ثم يُولى، ويتقبل هذه الأمور كأنها أحداث تجري بمعزل عنه وعن تفكيره وتقديره؛ ويغرق أهله جميعًا في سفينة قادمة من تونس، فإذا جوابه على هذه الفاجعة أنه يريد زيارة مكة ليتعزى عمن فقدهم، ومعنى هذا أن الإحساس بالصراع الذي يخلق الفن، ضعيف في تلك السير الذاتية "[٣٧]، لذلك فهذه الروح الثورية الناتجة عن الصراع ضرورية لنجاح البناء الفني للسيرة الذاتية .

٤- التعري النفسي والاعتراف المخلص، ولا سيما الاعتراف الذي يصيب حقائق الحياة الذاتية في السلوك العام وفي الأحداث الخاصة، وكما يقول علي أدهم : " ونحن بطبيعة الحال نتردد في أن نكشف عن نفوسنا، ونبيح دخائلنا أو مقاتلنا لأعين الناس، ونعرضها في الطريق ونملًا بأخبارنا الأسماع، ونشغل الناس بأنفسنا "[٣٨]، وقد جاءت إشارة عباس لهذه الصفة كذلك في السياق نفسه الذي تحدث فيه عن افتقار السير الذاتية في الأدب العربي لـ"روح الثورة" المشار لها فيما سبق من كلام، إذ يذهب هنا كذلك إلى وصف الأدب العربي في عمومه، بالافتقار إلى السير التي يملك أصحابها صفة "التعري النفسي والاعتراف المخلص"، أي القدرة على الاعتراف بجوانب حساسة من الشؤون الخاصة، ولكن عباسا يستثني هنا ابن حزم، الذي يتحدث عنه بقوله : " ولذلك نرى ابن حزم الأندلسي فذًّا في تلك النتف الاعترافية التي ضمنها كتابه "طوق الحمامة" وهو

زعيم مذهب وأخو تشدد بالغ في النظرة الدينية، ومع ذلك نجده يقول : " وعني أخبرك أنني أحببت في صباي جارية لي شقراء الشعر، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر (...) " . "[٣٩]، وإذن فابن حزم هنا يتحدث عن جانب حساس من ذكرياته ومن لوازم شخصيته، قد لا تتوفر لغيره الشجاعة للحديث عنه وتعرية ذاته كما فعل هو، وهذه من الصفات التي يجدها عباس ضرورية لنجاح السيرة الذاتية .

٥- العمق النفسي، وفي ظني أن ما يقصده عباس هنا بهذه الصفة، هو وصول صاحب السيرة الذاتية إلى درجة أعمق بكثير، مما يدعوه عباس من قبل "التعري النفسي والاعتراف المخلص"، إلى حد قد يبلغ الكلام فيه إلى الدقيق الدقيق من شؤون النفس وشجونها الخاصة، وكما يقول عبد العزيز شرف في هذا السياق، فإن وصول الكاتب إلى هذا العمق يحقق له حالة من التوافق والاتزان، ومن ثم فإنه ييسّر " له أن يعيش حياته الداخلية والخارجية والعليا من خلال ذكرياته، والكشف عن أسرار حياته الباطنية وتأمل ذاته العميقة، بما فيها من ثراء داخلي، يمثل عالمًا أصغر ""[٤٠]، حيث إذ يقول عباس هنا : " والى جانب العاملين السابقين وهما روح الثورة والتعري، نجد السير الذاتية والمذكرات واليوميات في أدبنا، مفتقرة إلى العمق النفسي (...) وهذا شيء يتمشى مع العنصرين الأولين، ويعتمد إلى حد كبير على التوافق بين الفرد ومجتمعه، ونظرته إلى نفسه والى الناس، وهو أعمق بكثير من الفخر الفردي القائم على تعداد المآثر في الذات، وملاحظة السيئات في الآخرين "[٤١]، ويضرب عباس لذلك مثلا مرة أخرى ما وجده لدى ابن حزم من عمق نفسي، حيث يقول : " ويتعمق ابن حزم استبطان أحواله النفسية في بعض مذكراته كأن يقول " وعني أخبرك أني ما رويت قط من ماء الوصل ولا زادني ظمأ ... ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان وراءها مرمى، فما وجدتني إلا مستزيدًا "[٤٢]، فكلام ابن حزم هنا كما

هو واضح من المثال الذي ساقه عباس، فيه من الجرأة العميقة في الاعتراف ما لا يمتلكه غيره ولا يتوفر لهم .

خامسا : الأصناف -

وقد قسم إحسان عباس السير الذاتية إلى أربعة أصناف، هي :

١- الصنف الإخباري، أي الذي يسعى أصحابه من خلاله إلى نقل أخبارهم وحسب، بحيث يمثل هذا الغرض الهدف الأهم لصاحبه، إذ يقول عنه عباس : " وهو يضم الحكايات ذات العنصر الشخصي، سواء أكانت تسجيل تجربة أو خبرا أو مشاهدة "[٤٣]، والهم الأكبر لمؤلف هذا الصنف في نظر عباس " أن يعرف الناس أين نشأ وكيف كانت قابليته للعالم، ومن شيوخه وما هي الكتب التي ألفها والبلاد التي زارها "[٤٤]، ورغم ذلك فإن السير التي تدخل تحت هذا التصنيف " تفيدنا كثيرًا لأنها تقرير مباشر عن تجاربهم [مؤلفيها] في الحياة وعن جهادهم فيها، فإذا لم تكن فيها المتعة الفنية، ففيها المتعة التي يثيرها الخبر الطريف والتجربة الصادقة"[٤٥]، هذا الجانب الذي يشير له رينيه ويليك وأوستن وارين بقولهما: " والسيرة تجمع المواد المتعلقة بمسائل التاريخ الأدبي الأخرى، مثل قراءات الشاعر واختلاطه الشخصي برجال الأدب، وأسفاره، والبيئة والمدن التي رآها وعاش فيها وكل هذه مسائل تلقي الضوء على تاريخ الأدب، أي على التقليد الأدبي الذي ينتمي إليه الشاعر، والمؤثرات التي شكلت فنه، والمواد التي أخذ عنها "[٤٦] .

٢- الصنف الذي يكتب للتفسير والتعليل والاعتذار والتبرير، وقد ساق عباس أكثر من مثال على هذا الصنف وقال واصافًا إياها بعبارة جامعة : " وكل من هؤلاء [مؤلفيها] كانت تكتنفه ظروف مضطربة، فكتبوا سيرهم لينصفوا أنفسهم أمام التاريخ، وليبرروا ما جرى لهم من زاوية ذاتية "[٤٧]، هذا الصنف الذي يصفه عبد

العزيز شرف بقوله : " وقد تكون السيرة الذاتية من قبيل الدفاع الذي يحاول فيه الكاتب أن يُصرح بمسار حياته ويبرره، أو يبرر عملًا خاصا قام به من أجلها"[٤٨].

٣- الصنف الذي يصور الصراع الروحي، وقد أورد عباس أمثلة عليه، منها مقتطفات من كتاب الغزالي "المنقذ من الضلال" يقول فيها الغزالي : " (...) " ولم أزل في عنفوان شبابي (...) لا أغادر باطنيًا إلا وأحب أن أطلع على بطانته (...) ولا صوفيًا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته، ولا متعبدًا إلا وأترصد ما يرجع اليه حاصل عبادته، ولا زنديقًا معطلًا إلا وأتجسس وراءه "[٤٩]، ومن الواضح مقدار الصراع الروحي الذي يعيشه الغزالي من خلال هذا المثال، حيث يجمل عباس رأيه في الكتاب قائلا : " وليس هذا الكتاب سيرة ذاتية بالمعنى الدقيق لأنه لا يصور إلا جانبًا من أزمة روحية تعرض لها الغزالي، دون نظر إلى ما عداها"[٥٠] .

٤- الصنف الذي يقص المغامرات في الحياة وما يلاقيه المرء من تجارب، ورغم ندرة وجود هذا الصنف من السير في أدبنا العربي، إلا أن من أقرب النماذج إليها، كما يرى عباس " مذكرات أسامة بن منقذ التي سماها "كتاب الاعتبار"، ففيه يتحدث أسامة عن حياة حافلة بالتجارب والمشاهدات والمغامرات، في أسلوب بسيط ينقل الحوار باللغة الدارجة في ذلك العصر، ولا يبرز الكتاب قوة الصراع من الناحية الفكرية، إلا أنه يحاول أن يستخرج العبرة من الأحداث نفسها "[٥١] .

المحور الثاني: الجانب التطبيقي .

وقد تمثل هذا الجانب في وضع إحسان عباس لسيرته الذاتية "غربة الراعي"، في مرحلة متأخرة من عمره عام ١٩٩٦م قبيل وفاته بسنوات، وهو العالم الذي " يختزن في وعيه هذه المعرفة المتطاولة بفن السيرة ويدرك المزايا والعيوب التي تعتور أي مؤلف في هذا الفن، هذه المعرفة النظرية والتطبيقية معًا "[٥٢]، اعتمادا على أنه وضع كتابه "فن السيرة" قبل ذلك بسنوات طوال، لذلك فسيقوم الباحث في هذا المحور، بعرض الجوانب الخمسة التي تحدث عنها عباس في ذلك الكتاب، على سيرته الذاتية "غربة الراعي"، للاستقراء والبحث عن مدى التزامه فيها، بما تطلّبه هناك في الجانب النظري، وفق الترتيب ذاته كما في المحور السابق:

أولا : الدافع -

وهنا يجد القارئ عباسا يستهل سيرته الذاتية بالإفصاح عن الدافع الذي حدا به لكتابة سيرته الذاتية، رغم تردده من حيث المبدأ في الشروع بكتابتها، وفي ظني أن هذا التردد نابع من تواضع العلماء الكبار لدى الحديث عن ذواتهم في سياق كهذا، حيث يقول : " فأنا أعرف أنني لم أشارك في أحداث سياسية، ولم أتول مناصب إدارية، ولم أكن عضوا في حزب، ولم أكن مسؤولًا عن مشروعات اقتصادية، إلى آخر ما هنالك من نشاطات تعرض الفرد للمسؤوليات الاجتماعية والوظيفية، وعلى الرغم من ذلك وجدتني أميل إلى كتابة سيرتي، ومنهجي فيها التزام الصدق فيما أسرده، لا لأن ما أكتبه تاريخ مهم، بل لأنه يمثل تجربة إنسان حاول في كل خطواته أن يخلص للعلم بصدق ومحبة "[٥٣]، والمقطع الأخير من كلامه هذا يعبر عن قناعته باكتمال "تجربته" في الحياة، الأمر الذي يجعلها جديرة بأن تُخط في سيرة ذاتية، وهو " الناقد الذي فُسحت له من ألوان المعرفة ما لم يتح لكثير من الباحثين والنقاد، تهيأ له منذ شبابه المبكر في فلسطين، وقبل أن يحوز الشهادة الجامعية من القاهرة، أن يتصل

بتراث العرب والغرب معا، فكان مثالا للتوسط والاعتدال، ونموذجا لجيل اجتمع فيه التراث والمعاصرة، فعرفناه ناقدا أدبيا بصيرا بالأدب، ومؤرخا لآداب العرب، ومترجما لأصول النظريات النقدية الحديثة ومحققا من جلة المحققين وأعيانهم، وأديبا مبدعا"(٥٤) .

ثانيا : الغاية -

ويشير عباس في السطور الأخيرة من سيرته إلى "الغاية" التي يرمي إليها من وضعه لها، حيث يجد القارئ أن هذه الغاية تتوزع في ثلاثة أبعاد، وفي الصدارة منها السعي إلى "تخفيف العبء" عن نفسه، من خلال الاعتراف ببعض الأخطاء التي يرى أنه وقع فيها لا سيما في الجانب الاجتماعي من حياته، في الفترات الأولى منها أيام الصبا والشباب، حيث يقول في ذلك : " وقد وضحت لي كتابة هذه السيرة مدى أخطائي في رحلة طويلة، ولكنها من جهة أخرى كشفت لي عن استمراري طويلًا في الخضوع لقيم القرية دون محاكمتها أو مراجعتها "(٥٥)، ولا سيما القصة التي تتعلق بالفتاة التي تدعى "مريم" من بنت عمومته التي تمردت على قيم عائلتها وقريتها في أربعينيات القرن العشرين، حين رفضت الزواج من ابن عمها وأحبت شخصا غريبا عن العائلة، بحيث أخذ الحماس عباسا حينها وانضم إلى صفوف من كانوا يترصدونها لإيقاع الأذى بها، وها هو ذا يقدم لها الاعتذار المطول بعد مرور ما يقارب ستين عاما على تلك الحادثة، في أكثر من صفحة من سياق السيرة، حيث يقول : " قد يكون هذا الاعتذار جاء متأخرًا كثيرًا، ولكنه كان يدور في نفسي منذ مدة غير قصيرة وإنما تأخر كما تأخرت كتابة هذه الاعترافات "(٥٦)، ورغم أن موقف عباس من ابنة عمه هذه، لا يصل في فداحته إلى ما تقترفه بعض الشخصيات التاريخية من أخطاء إجرامية فادحة، إلا أن حساسية شخص مثل إحسان عباس وشاعريته، تجعلانه يشعر بأنه مدين لتلك الفتاة الريفية بمثل هذا الاعتراف .

وثاني هذه الأبعاد هو الإشادة ببعض الأصدقاء المقربين منه الذين مروا به خلال مسيرة حياته، وتقديم الشكر لهم والاعتراف لبعضهم بمواقفهم النبيلة معه خلال تلك المسيرة، وهؤلاء الأصدقاء كثر، ومنهم على سبيل المثال الشخصيات التي يورد أسماءها في قوله: "وقد كان من أكبر ألوان التكريم أن زارني في معتكفي، أصدقاء لم ألقهم من قبل، كان في طليعتهم المفكر الكبير نصر حامد أبو زيد والدكتورة رضوى عاشور والدكتور جابر عصفور والدكتور صلاح فضل، وشاعر العصر الحديث غير منازع محمود درويش صديقي منذ أيام بيروت وزميلي العزيز الدكتور حنا أبو حنا، والدكتور حنا ناصر رئيس جامعة بير زيت، وغيرهم من أعلام الأدباء والمفكرين"[٥٧].

وثالثها هو سعيه إلى نقل "تجربته" العميقة والمثمرة والفاعلة في هذه الحياة للآخرين، بوصفه الرجل الذي خدم ثقافة الأمة العربية الإسلامية على مدار ستين عاما، حيث يقول في هذا السياق : " ولكني لم أكتب هذه السيرة لتصوير الآلام، وإنما كتبتها لنقل جل التجارب التي واجهتها بصدق "[٥٨]، على أمل أن يستفيد منها هؤلاء الآخرون، وهو الرجل الذي مر بمصاعب وظروف لم تكن كلها ملائمة ولا سعيدة " ولكنه بهمة الرجال استطاع أن يتخطى المصاعب، وأن يسير في الطريق الذي قرر أن يسلكه، فوصل به إلى ما يريد وأصبح هذا الرجل علمًا بارزًا لا ينكر وجوده "[٥٩] .

وثمة جانب آخر كان إحسان عباس أشار له في كتابه "فن السيرة"، ضمن كلامه عن الغاية من تأليف صاحب السيرة الذاتية لسيرته، وهو سعي المؤلف لإبراز "الجانب الإبداعي" فيها، والحقيقة أن قراءة سيرته الذاتية لا توصل المتأمل فيها، إلى أن غايته من كتابتها كان إبراز جدارته بوصفه كاتبا لهذا الجنس النثري، وذلك لغلبة الطابع الإخباري على هذه السيرة كما سيتضح فيما يلي من حديث في هذا المحور، ولكن من ناحية أخرى فإن القارئ لا يعدم بالمطلق إشارات من قبل عباس لملكته الشعرية التي اكتشفها في مرحلة مبكرة من حياته، والدليل على ذلك أنه يستهل السيرة بأبيات شعرية، من دون أن يشير إلى أنها له، وهي قوله:

" تحية عام جديد

في دفتر لي قديم كتبت هذي السطور

"أمس الذي عاش فينا أمسى وراء الدهور

يمور فينا سناه لكنه لا يحور

شكرًا له قد نعانا لوشك عام جديد

أمات مقبل عمر ذبحًا بشفر حديد

فضاع ما نترجي وعاش ما نستعيد" "[٦٠]

ويختمها كذلك بشعر يقول فيه:

" حكمة ختامية

منطق الشجرات الثلاث

(الشجرة – الحياة – المحبوبة)

قاسية هي الحياة

جاسية عروقها

وأعجزٌ لحاؤها

صليبة كالسنديانة العتيقة (...)[٦١]

ثالثا : الشروط –

وهي خمسة شروط أشار إليها إحسان عباس وتحدث عنها بالتفصيل، وعدّ توفرها في السيرة الذاتية ضروريا حتى تأخذ شكلها الفني الصحيح، وهي :

١ : أن يكون صاحب السيرة، شخصا ذا تميز واضح في ناحية من نواحي الحياة، وفق رؤية عباس في الجانب النظري، وفي هذا الجانب فإنه لا يُتوقع من عباس

أن يشير إلى هذا الميزة إشارة مباشرة في كتابته لسيرته الذاتية، وإنما يمكن أن تُلمس من خلال مروره على محطات مهمة في حياته، أو إشارته إلى مواضع أو جوانب ظهر فيها تميزه عبر مراحل حياته المختلفة منذ الصغر إلى الكبر وهي كثيرة [٦٢]، ومنها على سبيل المثال، جهوده المميزة في خدمة الأدب العربي الحديث لا سيما قراءاته النقدية لنصوص من هذا الأدب، إذ يقول في أحد المواضع في هذا السياق : " زرت الآنسة الشاعرة نازك الملائكة فعرفتني على والديها وأختها "إحسان" وكنت قد كتبت عن شعرها مقالتين في مجلة "الثقافة" المصرية، وقد حمدتْ ما كتبته وعدّته من أعمق ما كتب عنها من دراسات، من هنا بدأ توجهي نحو دراسة رواد الشعر الحديث، وهم جميعًا عراقيون نازك والبياتي والسيّاب (...) "[٦٣] إلى غير ذلك من الجهود الجبارة التي بذلها بوصفه " المعلم الناقد الباحث الذي ملأ بحضوره حركة النقد العربي الحديث، والذي أعطى لحركة النقد العربي الحديث جذورها، بالعودة الى التراث، وبالبحث والتنقيب والاجتهاد، الذي – كما يقول – يزلزل الاعصاب، هذا التعب الذي تغلب عليه الدكتور إحسان بجبروت روحه، وشعوره الجليل بأنه يؤسس زمنا نقديا عربيا، لقد قام الدكتور إحسان بما تعجز عنه مؤسسات، وما تنوء بعبئه حركة نقدية بكاملها "[٦٤]، حيث يقول في ذلك : " فكتبت خمسة كتب في تاريخ بلاد الشام ونشرتها والسادس ناجز وإن لم يذهب إلى المطبعة بعد، وترجمت في الموضوع نفسه (تاريخ بلاد الشام) بحثين وكتبت بحثًا ونشرته، وقدمت للمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (آل البيت) بحثين أحدهما في فلسفة التربية الإسلامية والثاني في نظام الشورى في الأندلس، وأصدرت نشرة محققة مزيدة مفهرسة من كتاب معجم الأدباء لياقوت في سبعة أجزاء، وحققت مع أخي بكر تسعة أجزاء من التذكرة الحمدونية، وهي على وشك الصدور مجتمعة، وترجمت بمشاركة أخي بكر كتابًا في "أبعاد الرواية الحديثة" (...) "[٦٥] .

٢ : أن يكون الصراع الداخلي في نفس صاحب السيرة، والخارجي في علاقته مع الناس، على قدر من الشدة، حيث تتعدد المواقف التي يتلمس فيها القارئ هذين البعدين من أبعاد الصراع في سيرة عباس الذاتية، ومنها إشارته إلى حالة من القلق الوجداني ظلت ترافقه عبر مراحل حياته المختلفة، لدرجة أن هاجسا سيطر عليه بأنه لن يعيش في هذه الدنيا طويلا، الأمر الذي كان يدفعه نتيجة ذلك للاجتهاد في إنجاز الأعمال الكبيرة والمهمة التي كان يتصدى لها مخافة أن يدركه الأجل قبل الانتهاء منها، إذ يقول : " وكنت قبل أن أغادر فلسطين قد سيطرت علي فكرة خلاصتها أني لن أعيش طويلًا، وقد ساعدتني هذه الفكرة على تقبل الحياة دون تذمر، كما كانت حافزًا لإنجاز كل عمل أبدأه "[٦٦] .

هذا فيما يخص القلق الوجداني الداخلي، أما ما يخص المشكلات والمواجهات الخارجية مع خصوم، فإن حياة عباس لم تخل منها وقد أشار إلى بعضها في أكثر من موضع [٦٧]، ولعل أبرزها الموقف الذي كان سببا في إنهاء عقد عمله في جامعة الخرطوم وخروجه من السودان سنة ١٩٦٠م، عندما كاد له رئيس القسم آنذاك لدى رئيس الجامعة ما ترتب عليه انتقاله للعمل في بيروت، حيث يقول موضحا سبب ما حدث : أن رئيس القسم كان " قد استاء مني لأنه كان يراني أكثر الجلوس في مكتب أحد الأستاذين اللذين اشترط طردهما، ظنًا منه أننا لا نجتمع معًا إلا لاستغابته، وإذا كان هو عند نفسه مهمًا فلم يكن عندنا كذلك، وكان وقتنا أثمن من أن نبدده في أمور هامشية "[٦٨] .

٣ : اكتمال تصور كاتب السيرة الذاتية لتجربته، اكتمالا مبنيا على القناعة بأهميتها، وفي هذا الجانب فلا يُتوقع من شخص مثل عباس أن يشير له في سيرته إشارة المتفاخر، وإنما يمكن أن يُلمس من خلال وقوفه عند بعض المحطات المهمة في حياته كذلك، فها هو ذا يصف ما كانت تحدثه به نفسه لدى بذله الجهود الجبارة في التحقيق والترجمة والتأليف دون كلل أو ملل، إذ يقول واصفا الدافع الخفي

لذلك : " وكان هذا شعوري الخاص بي الذي لا أحدث به أحدًا وكنت أحس – بإخلاص – أنني أينما عملت، فإني أعمل من أجل أبناء أمتي العربية، كان هذا الشعور حقيقة لا يحتاج مني إلى وقفة أو تأمل، وكنت في ذلك مخلصًا وإن كنت لا أنتمي لحزب، لأن الأمة العربية أكبر من كل الأحزاب "[٦٩]، فمثل هذا الشعور المبطن في هذا القول يشي للقارئ بأن الرجل على قناعة تامة بأهمية الدور الذي بذله في خدمة الأمة، وهو الدور الذي كان دافعا لأن ينال التكريم في أكثر من محطة من محطات العمر.

ومن هذه المحطات الجهد الذي بذلته طالبته وداد القاضي في استكتاب أكثر من خمسين عالما من مناطق مختلفة لتقديم بحوث ومقالات بمناسبة بلوغ إحسان عباس سن الستين[٧٠]، فضلا عن دورها في إقامة حفل تكريمي له بمناسبة نيله جائزة الملك فيصل العالمية سنة ١٩٨٠م[٧١]، أما نيله لجائزة الشيخ سلطان العويس[٧٢]، فقد أشار له في معرض حديثه عن زيارته لدبي والشارقة وأبو ظبي سنة ١٩٩٣م .

٤ : الموضوعية في نظرة كاتب السيرة إلى نفسه، فرغم أن عباسا من الشخصيات الكبيرة على الصعيد الثقافي والأكاديمي في الوطن العربي، إلا أنه " لم يلجأ إلى تضخيم الذات، ولم يقع في فخ النرجسية، وكشف أسلوبه البسيط الواضح البعيد عن الإيجاز والإيماء عن تواضعه الجم "[٧٣]، حيث يمكن للقارئ أن يلمس هذا الجانب في سيرته بوضوح، فهو من الأعلام البارزين في نقد الشعر على مستوى الوطن العربي، بدليل وضعه لكتاب مهم مثل "فن الشعر" وغيره من المؤلفات المهمة في هذا السياق، ورغم ذلك يجده الباحث يتحدث عن هذا الجانب بتواضع المستقل لجهده، قائلا في ذلك : " ومع أني اتخذت الشعر ميدانًا للنقد، فإني لم أكتب في هذا المجال إلا أشياء قليلة، والسبب في ذلك أن الشعر فن صعب، بل هو أصعب فنون القول "[٧٤] .

وكذلك يجده القارئ يقول عن جهوده الضخمة والجبارة في تحقيق المخطوطات المهمة والقيمة من التراث العربي، واصفا جهده في هذا السياق : " كما أنني على الرغم من كل ما حققته من كتب لا أعد نفسي محترفًا في هذا الميدان، بل ظل التحقيق لدي "هواية" تجذبني ولكنها لا تستطيع أن تتملكني "[٧٥]، كما يجده في موضع تال يقدم سردا سريعا لعدد من الأعمال الجليلة التي قام بها في جوانب التحقيق والتأليف وكتابة المقالات الصحفية النقدية ومناقشة الرسائل العلمية الجامعية والنشاطات التلفزيونية، ثم يتبع بقوله : " ولست أعد كل هذه الإنجازات مكاثرة، فأنا أستقل كل ما عملت لأني كنت أرجو أن أكون أكثر قدرة على مزيد من العطاء "[٧٦]، وإذن فهذه الشواهد تشي بتواضعه في نظرته لجهوده التي بذلها عبر حياته على الرغم من أنها جهود كبيرة ومهمة .

٥ : أن تكتب السيرة الذاتية في مرحلة عمرية متأخرة، ولا ريب أنه كتبها في هذه المرحلة المتأخرة من عمره الذي ناف عن ثمانين سنة، وقد أشار إلى ذلك في أكثر من موضع من السيرة، بحيث لا يكاد يجد القارئ اختلافا بين مضامين تلك الإشارات، سوى ما يتعلق منها بالسياق الذي قيلت فيه، ومنها قوله في مقدمة السيرة : " وإذا كان هناك من عيب في الإقدام على كتابة مثل هذه السيرة فذلك هو أنها تأخرت في الزمن، وكان من الحق أن أكتبها قبل حلول الشيخوخة وامتلاء النفس بألوان من المرارة والخيبة "[٧٧]، ولا أظن أن عباسا يقصد إلى المعنى الدقيق من وجود عيب في السيرة نتيجة تأخره في كتابتها، وإنما هو تواضع العلم الكبير وهو يسطر تجربة حياته الثرة بالإنجازات .

رابعا : **الصفات** –

وهي خمس صفات كان إحسان عباس أشار لها وعدّها ضرورية في السيرة الذاتية، حتى تُعد ناجحة أو عظيمة، وهي :

١- نسبة الذاتية في السيرة، أي مقدار تمحورها حول شخصية صاحبها وتناولها لأدق متعلقاته، وهذا الجانب يمكن أن يُلمس في سيرته في المواضع التي يتعمد فيها الحديث عن شؤونه الشخصية هو خاصة دون غيره من البشر، أو الجوانب الوجدانية والمشاعر والذكريات أو ما يحب وما يكره ولا يستطيع سبر أعماقها إلا هو، عبر مراحل حياته منذ الصغر حتى الكبر؛ أي بمعنى حين ينصرف عن العيش في سياق ضمير الـ"نحن" ويلتفت أكثر لضمير الـ"أنا"[٧٨]، ومن ذلك على سبيل المثال إشارته إلى أنه تعمد التخصص في نقد الشعر دون الرواية بناء على اتفاق مع صديقه محمد يوسف نجم في مرحلة الشباب، قائلا : إنني " منذ البداية انصرفت إلى نقد الشعر ولم أمارس نقد الرواية ودراستها، وعصرنا هو عصر الرواية دون أدنى ريب، والسبب في انصرافي عن دراسة الرواية أني اتفقت وصديقي محمد نجم – دون عهد مكتوب – أن ميداني هو الشعر وأن ميدانه هو دراسة القصة والرواية والمسرحية، وأنني لن أنافسه في ميدانه أبدًا "[٧٩] وليس السبب كما يبيّن استهانته بالرواية وإنما لأسباب أشار لها في ذلك الموضع من سيرته، بل إنه على العكس من ذلك كان مغرما بقراءة الرواية، حيث يكمل كلامه السابق قائلا : " وكان مفزعي في القراءة إلى الروايات المكتوبة بالإنجليزية، ومع الزمن أصبحت الرواية في حياتي، هي الظل المريح الذي أفيء إليه من تعب البحث "[٨٠] .

٢- درجة الصدق في السيرة، حين يشير كاتبها إلى بعض من مكنونات اللاوعي والجوانب التي يتعمد البشر في العادة إخفاءها أو يخجلون من الحديث عنها، سواء أكانت من متعلقات كاتب السيرة نفسه أو أفراد أسرته والقريبين منه، وهنا يجد القارئ عباسا يعرض لمواقف تبيّن مقدار حرصه على الصدق مع قرائه وتعمده عدم إخفاء جوانب من سيرته عنهم، كحديثه عن والده حين يصف شخصيته بقوله : " ولو أن سائلا سأله في أية مرحلة من حياته : هل كان والده

متدينًا، لما وجد لديه إجابة حاسمة (...) ولهذا لم يكن يجزم أن والده يحافظ على الصلوات الأخرى كما يحافظ على صلاة الصبح، ولم يكن يشهد معاملاته للآخرين ليعرف إن كان يتوخى الحق أو يتجانف عنه "[٨١] .

وفي موضع آخر يجده القارئ يسلط الضوء كذلك على جانب حساس من علاقة والديه ببعضهما، إذ يبدو أن اقترانهما في الأصل لم يكن برغبة الأب، وفي ذلك يقول عباس : " ومع الزمن أخذت أدرك أن والدي لم يكن راضيًا عن الزواج الذي فرضته عليه أمه، كنت أعرف ذلك في بعض ما يدور من حديث في البيت، وفي بعض الإشارات والهمسات "[٨٢]، هذه المعلومة التي عرفها الغلام آنذاك وسط جو يصفه على حد قوله بأن فيه "مؤامرة" على والدته من قبل أبيه الطامح للزواج بأخرى، وجدته لأبيه المرأة القوية الشخصية المتسلطة على من حولها، حيث يقول : " وبقيت أمي بين تحكم جدتي وطموح والدي إلى الزواج بعيدًا عن إرادة أمه، وكنت أحس حولي بجو يشبه المؤامرة، فجدتي القوية المتحكمة تدعو والدي إلى الجلوس كلما استقر في البيت وتأخذ في تأنيبه وتقريعه على أمور لا أعرفها "[٨٣] .

٣- روح الثورة في السيرة الذاتية، والذي يعرف مشوار إحسان عباس عبر مراحل حياته، لا يتوقع أن يجده في سيرته هذه الثائر الذي حمل السلاح على عاتقه ومارس الثورة بالمعنى العسكري لها، ولكن رغم ذلك فإن مشواره في الحياة لم يخلُ من مواقف ثورية، باعتباره واحدا من أفراد الشعب الفلسطيني ولأنه قضى فترة نشأته الأولى، من الطفولة إلى سن الشباب تحت حكومة الانتداب آنذاك، وهو يراقب مع عموم الشعب الظروف التي كان يهيئها المحتل لإقامة الكيان الصهيوني في بلادهم، ومن المواقف المؤلمة في هذا السياق الحدث الذي يشير له عندما جمع عسكر الانتداب رجال قريته في ساحة من ساحاتها وكان عباس بينهم، ولقيه ما لقيهم من إيذاء وعذاب، إذ يقول : " فكان الجندي على اليمين يضربني بقبضته فيتلقاني جندي على اليسار، فيضربني بقبضته أيضا ويردني إلى جندي

آخر على اليمين، كنت كالكرة يتبادلها صفان من الجنود، حتى وصلت إلى نهاية الصفين، وكان هذا النوع من التعذيب يُعدُّ لعبًا وتلهيا إذا قيس إلى أنواع أخرى من التعذيب، لقد طبقت علينا حكومة الانتداب العقوبات الجماعية "[٨٤] .

لكن روح الثورة بشكلها البسيط وغير الممعن في العنف لم تكن حاضرة لدى عباس في مقاومة المحتل أو التعرض لأذاه وحسب، بل كانت حاضرة في مشاهد أخرى من حياته لا سيما في الجوانب الاجتماعية الأسرية، ولعل أبرزها موقفه الذي أشار له في أكثر من موضع، عندما تلبسته روح الثورة ضد قرار والده بتزويجه من فتاة، لا يعرفها من قبل ولم يرتبط بها بحبل الغرام، إذ يقول : " حتى ثورتي على ما قام به والدي في قضية زواجي كان يعد – في نظري – محاولة الأسير المثقل بالقيود أن يكسر قيوده. فكان جدلي في هذا الأمر لم يكن سوى إمعان في انتحال مزيد من القيود "[٨٥]، لأن ثورته هذه لم تجد نفعا في ثني والده عن قراره الذي أثر من بعد في مسيرة حياته كلها من مبتدئها إلى منتهاها.

٤– التعري النفسي والاعتراف المخلص، وهو الجانب الذي يصفه أندريه موروا بأنه " لون آخر من الرقابة تتم ممارسته من خلال الحياء"[٨٦] والذي يترتب عليه كما يرى موروا، أن قليلا " جدًا من الناس لديهم الشجاعة لأن يقولوا الحقيقة حول حياتهم الجنسية "[٨٧] حيث تفيد القراءة هنا أن هذا العنصر الفني تحقق بشكل واضح في سيرة عباس، من حيث تعمده التصريح المباشر أو الإشارة إلى جوانب هي غاية في الحساسية من خصوصياته أو شؤونه الذاتية أو متعلقاته في حياته الأسرية، التي يعمد الناس في العادة إلى تجنب التصريح بها، لكن عباسا العارف بدقائق الشروط والعناصر الفنية لكتابة السيرة يعمد إلى تحقق هذا الجانب، حيث يستطيع القارئ الحكم بعد الاستقراء أن معظم المواقف التي أشار لها هنا ذات علاقة بـ"المرأة"، فها هو ذا يقول واصفا موقفا حصل له عندما كان طالبا في المدرسة في حيفا في بيت الشيخ "أحمد السعدي"، حيث جمعتهم جلسة فيها فتاة

برفقة أمها، حيث يقول : " وحين التفتّ ثم انفتلتُ رأيت الفتاة قد رفعت فستانها عن ساقيها وعن معظم الفخذين لئلا يتجعلك الفستان، وأمها تعاتبها همسًا لأنها تفعل ذلك وأنا موجود فتجيبها : إنه ليس سوى طفل "[٨٨] .

أما الموقف الذي يمكن وصفه بأنه من أكثر المواقف التي كان فيها عباس متملّكا للجرأة في التصريح بشأن من خصوصياته وهو يكتب هذه السيرة، فهو روايته للحدث الذي أبلغه فيه والده بأنه اختار له شريكة حياته، من دون أن يراها أو يعرفها من قبل، بل إن والده فرضها فرضا عليه، لينتهي الحوار في هذا الشأن بقول عباس: " وحين ودعني في النهار عائدًا إلى القرية قال لي : أما من حيث الجمال فإن حظك لم يكن كبيرًا، وأما الثقافة فلا أدري عنها شيئًا ؟ قلت : سلّم على أمي وقل لها إنك في زيارتك لي أطلقت علي رصاصة الرحمة وتخلصت مني "[٨٩]، لكنه يخضع لقيم القرية في النهاية على الرغم من أنه ظل يبدي تبرمه عبر مراحل حياته القادمة، من هذا الاختيار الذي ألزمه به والده رغما عنه.

٥- العمق النفسي، وهو يبدو قريبا في معناه مما سماه عباس "التعري النفسي" ولكن الفرق بينهما في أن الأول ينطوي على "اعتراف"؛ أي أن صاحب السيرة يعمد إلى كشف بعض من مكنونات ذاكرته لغرض هو "الاعتراف" للقارئ بأمور معينة، وهذا الجانب ولا ريب من سمات القوة والجودة في كتابة السيرة الذاتية لأنه يمنحها مصداقية أكثر، أما "العمق النفسي" فهو انكشاف لأجزاء من مستور "اللاوعي" لدى الكاتب، ولكن ليس لغرض "الاعتراف" بحيث تبدو وكأنها معلومات تتساقط في ثنيّات كلام الكاتب من "لاوعيه" من دون قصد منه، رغم أن عباسا حاول جاهدا أن يخفي كثيرا من هذه المكنونات لديه، كما يقول صديقه إبراهيم السعافين : " ويبدو أن إحسان عباس وقف عند هذا الأمر طويلًا ، فلم يوف عنصر البوح حاجته من الغوص في أعماق النفس والمجتمع، فتخفف من كثير مما أراد أن يقوله ويبوح به "[٩٠] .

ومن الأمثلة على "العمق النفسي" في السيرة، استثارة جمال "المرأة الصفدية" لخواطر في نفس عباس، عندما كان يعمل معلما في صفد لسنوات، حتى إن هذا الجانب أثار لديه حالة من التناقض اتجاه "المرأة" عامة و"المرأة الصفدية" خاصة؛ فهو من جهة ينظر إلى المرأة على أنها أصدق من الرجل وأكثر تقديرا للحب، ولكنه في الوقت ذاته ينظر إليها على أنها كائن متصنع، حيث يقول في ذلك : " يدل على ذلك أني نظمت في يوم من الأيام (١٩٤٢) قصيدتين متباعدتين جدًا في المرأة، وكنت أنام على الشرفة الخارجية من بيتنا في القرية، إحداهما عنوانها "هيكل المثل" وذلك رمز للمرأة في صورتها المثالية، وهو نابع من إيماني بأنها أصدق من الرجل وأكثر منه تقديرًا للحب، وأصور في الثانية المرأة المتصنعة المتكلفة التي تظهر سمات المحبة وهي نائية عن هذا الموقف – نظمت القصيدتين في وقت واحد وكنت تحت اللحاف، وورقة عن يميني أكتب عليها إحدى القصيدتين وورقة عن شمالي أكتب عليها القصيدة الأخرى حتى اكتملت القصيدتان "[٩١]، ولعل هذا من أظهر الأمثلة على العمق النفسي لديه، لأنه على الأقل يصف نفسه في الموضع ذاته، وكأنه يعاني من انفصام تجاه المرأة لأن شعوره في القصيدتين كان صادقا.

خامسا : الأصناف -

يُلاحظ من خلال قراءة فكر إحسان عباس في هذا الجانب، أنه قسم السير الذاتية في العموم إلى أربعة أصناف : الصنف الإخباري، والصنف الذي يكتب للتفسير والتعليل والاعتذار والتبرير، والصنف الذي يصور الصراع الروحي، والصنف الذي يقص المغامرات في الحياة وما يلاقيه المرء من تجارب، على اعتبار أن "السيرة الذاتية" ستندرج تحت واحد من هذه الأصناف، بحيث تكون هذا أو ذاك أو ذاك، لكن البداهة تقول إن بعض السير يمكن أن تُصنف تحت صنفين من هذه الأصناف أو أكثر في الوقت نفسه، بحسب هدف مؤلفها أو غايته منها أو لأي سبب فني آخر،

ويبدو للقارئ هنا أن سيرة إحسان عباس فيها من السمات الأربع التي أشار لها في الجانب النظري، وهي:

١- الصنف الإخباري، حيث يشير عباس في مستهل سيرته إلى أن البناء الفني لها لن يكون على شكل رواية، بحيث يسمح لخياله أن يضيف أو يزيد أو يعدل في مسيرتها وأحداثها، قائلا : " ومع ذلك وجدتني أختار في كتابة سيرتي أسلوبًا بسيطًا كأنه حكاية ممتدة، مراعيًا إلى حد كبير التدرج الزمني، لاعتقادي أنني لا أنوي أن أقدم للناس رواية، حيث يستبيح الكاتب لنفسه أن يتلاعب بالزمن فيقدم ويؤخر؛ ويطلق العنان لخياله في بناء شخصيات لم تعش على هذه الأرض "[٩٢]، لأن هدفه ليس المتعة التي يجدها قراء الرواية، وإنما هدفه " أن يستمد منها الدارسون معلومات صحيحة عن حياة مؤلف هذه السيرة وشيء من عصره "[٩٣]، وإذن فالبعد الإخباري واضح فيها اعتمادا على أنه يرتب أحداثها الترتيب الزمني التسلسلي من صغره حتى المرحلة العمرية المتأخرة التي كتبها فيها، ومن ذلك أنه يقدم سردا إخباريا في المثال التالي، لرحلاته العلمية ومشاركاته في المحافل والمؤتمرات العلمية، إبان عمله في الجامعة الأمريكية في بيروت، قائلا : " تميز النصف الأول من حقبة بيروت، بكثرة الأسفار إلى المؤتمرات العلمية وبكثرة الدعوات إلى الجامعات (...) كما دعيت سنة ١٩٧٠ لزيارة الجامعات البريطانية وإلقاء المحاضرات فيها (...) وفي عام ١٩٧٥ دعيت لأكون أستاذًا زائرًا بجامعة برنستون (...) وفي السنة التالية (١٩٨٣) دعتني الجامعة الأميركية بالقاهرة لأكون أستاذًا زائرًا متميزًا "[٩٤].

٢- الصنف الذي يكتب للتفسير والتعليل والاعتذار والتبرير، وهذا الجانب ظاهر أيضا في سيرة عباس، ومن ذلك على سبيل المثال المواقف النبيلة التي يحتفظ بها في ذاكرته لعدد من الأصدقاء في القاهرة، سنة ١٩٤٨ بعد إعلان قيام الكيان الصهيوني وضياع الوطن فلسطين، وما رافقه من توقف المبالغ المالية التي كانت

تخصصها حكومة الانتداب آنذاك للطلاب المبتعثين ومنهم إحسان عباس، إذ مر بضائقة مالية استمرت لشهور فبادر لمساعدته عدد من الصحب، منهم صاحب الشقة التي كان يسكن فيها، بحيث أبلغه بأنه سيصبر عليه حتى تتيسر أموره، وشوقي ضيف الذي هب لمساعدته لكن مقابل رفْض عباس عَرَض عليه أن ينشر له ترجمته لكتاب "فن الشعر" لأرسطو طاليس ليحصل مقابل ذلك على مبلغ من المال، حيث يقول عباس : " ولكني لا أدري هل كان المال الذي أعطانيه [شوقي ضيف] من دار النشر أو أنه اقتطعه من ماله الخاص. وجاء لصديقي محمود زايد رحمه الله (وكان طالبًا في قسم التاريخ) مبلغ من المال فقسمه بيني وبينه مناصفة، وقال لي صديقي محمود الغول وكان يدرس في المدرسة الإنجليزية بالسويس : في آخر الشهر أتسلم أول مرتب لي من المدرسة، وهو لك "[٩٥]، وهذه الإشارة بمثابة اعتراف بفضلهم وشكر وامتنان منه لهم بعد مرور كل تلك السنوات.

أما الإنسانة التي توقف عندها كثيرا إحسان عباس وبشكل لافت لانتباه القارئ، فهي ابنة عمه "مريم" التي خرجت على قيم العائلة بحبها لفرد من خارجها أيام صبا عباس، الأمر الذي أدى بهم لحنقهم عليها وقرارهم الصارم بقتلها، حيث يخصص لها عباس ما يزيد عن صفحتين من السيرة ليقدم لها الاعتذار المطول قائلا في مستهل ذلك : " وإذا كان هناك من أحد أتقدم اليه بالاعتذار، فإني إليك يا مريم سالم خليل أتوجه بأسفي واعتذاري، كنت مغمورًا بقيم العائلة المستمدة من قيم الريف حين لم أستطع أن أرى في موقفك ثورة على تقاليد هي القيود بعينها، حين لم أقدر الإشارة القوية التي حاولت إرسالها إلى الغافلين كي يتنبهوا، إن مجتمعًا وقف كله يرى في قتلك تطهيرًا لشرف العائلة، لم يكن ليقف عند قتل امرأة واحدة وإنما كان مليئًا بالحقد على كل فرد امرأة كان أو رجلا "[٩٦]، وكأن عباسا يريد أن يشعر القارئ من خلال إطالته في الاعتذار لمريم، أنها " حاضرة في كل كلمة من كلمات هذه السيرة،

وحاضرة في فضاءاتها، وإذا كانت السيرة تشكل ثانية الماضي الذي كان، فإن مريم هي الحلم المضمر على الصعيد الإنساني لما كان يمكن أن يكون، وبالقدر الذي يتحرك فيه "حضور" صاحب السيرة، فإن غيابها الحاضر فيه لا يكف عن كتابة ذاته، عبر ذلك التوق العارم للتحليق الذي يسكن أجنحته المقيدة "[٩٧]، لأنها في نظره أيقونة حرية في فترة زمنية لم يكن يدري حتى هو المغزى الذي يومئ إليه موقفها التحرري آنذاك، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن عباسا الذي أمضى حياته سادنا لتراث أمته العربية، ما كان يُستغرب منه أن يقف مثل هذا الموقف البكائي المؤلم، تجاه فرد من هذه الأمة، كل ذنبه أنه طمح للحرية التي يراها عباس حقا للأمة كلها، فكيف بابنة عمه الفتاة التي كانت أميّة حين وقفت ذلك الموقف.

٣- الصنف الذي يصور الصراع الروحي، وهذا الجانب واضح في سيرة إحسان عباس الأديب الشاعر الناقد الذي عانى في مسيرته أصنافا من المشقة، وكان لا بد لها من أن تنعكس على الجانب النفسي الروحي لديه، ومن ذلك على سبيل المثال، أن اختياره لموضوع رسالة الدكتوراه "حياة الزهد وأثرها في الأدب الأموي" مرتبط بالفترة التي يصفها عباس بأنها حقبة جوع مر بها وقت كتابة الرسالة؛ أي بمعنى أنه يقرن بين اختياره لموضوع الزهد في الأدب الأموي والحالة النفسية التي كان يعيشها، بوصفه الباحث الذي يهم بدراسة هذا الموضوع القريب من نفسه، والذي فيه محاكاة لما يعتمل فيها من ألم وصراع نتيجة الظروف التي يعيشها، حيث يقول واصفا ذلك : " وأقول : كان إقدامي على دراسة الحسن البصري، ذا صلة باختياري موضوع حياة الزهد وأثرها في الأدب الأموي ليكون رسالة لنيل الدكتوراه، وكان كل ذلك التوجه نتاج حقبة الجوع التي عشتها في القاهرة، وفيها كنت أداوم قراءة سير الزهاد المسلمين وسير رهبان الصحراء المصرية، وأحاول أن أرسم لنفسي منهجًا يمنحني القدرة على مصارعة الجوع أو معرفة الوسائل التي

تعين على تحمله "[٩٨]، وهذه لفتة جميلة قلما يُعثر على مثلها في الدراسات الأكاديمية خاصة.

٤- الصنف الذي يقص المغامرات في الحياة وما يلاقيه المرء من تجارب، وفي هذا الجانب فإن حياة عباس لا تخلو من المواقف التي يمكن وصفها بأنها مغامرة أو مغامرات، والمغامرة بالطبع هي الحدث غير الاعتيادي في مسيرة الحياة، الذي يمتاز بأنه قد يكون فيه مخاطرة أو مجازفة أو شجاعة أو خوف أو ما سواها من الإثارة، وقد عرض عباس لأكثر من موقف من هذا القبيل في مسيرة حياته[٩٩]، منها على سبيل المثال، حين استدعاه مكتب الأمن للتحقيق معه، إبان عمله في الجامعة الأمريكية ببيروت بعد عودته من أحد المؤتمرات، إذ يصف الموقف بقوله : " وجاءني – وأنا في الجامعة – إشعار بأني مطلوب للأمن العام، فذهبت لمقابلة مسؤول هنالك فأخبرني أن الأمن العام يشتبه في تحركاتي لأني كثير الأسفار "[١٠٠]، وبعد محاججة عباس لهم بأن تلك الأسفار لأغراض علمية كحضور المؤتمرات التي هي بعلم الجهاز الأمني في الأصل، لينقضي الموقف بالشكل الذي يصفه عباس بقوله : " أخيرا قال الرجل المسؤول : بين يدي تقرير طويل ينسب إليك أشياء كثيرة قلت : ليتك تعرفني بعض هذه الأشياء لأقدم لك إجابة واضحة عنها، فلم يفعل، وإنما أمر لي بالانصراف فعدت إلى الجامعة دون أن أعرف ما هي التهمة الموجهة إلي "[١٠١] .

الهوامش:

(١) فن السيرة، إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط١، عمان، ١٩٩٦م .

(٢) غربة الراعي، سيرة ذاتية، إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع ، ط١، عمان، ١٩٩٦م .

(٣) فن السيرة، ص ٨٦

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٨٦

(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٨٤

(٦) المصدر السابق نفسه، ص ص ٨٤، ٨٥

(٧) المصدر السابق نفسه، ص ٨٥

(٨) التراجم والسير، محمد عبد الغني حسن، دار المعارف، ط٢، مصر، ١٩٦٩م، ص ٩

(٩) فن السيرة، ص ص ٩٤، ٩٥

(١٠) السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، فيليب لوجون، ترجمة وتقديم عمر حلي، المركز الثقافي العربي، ط١، بيروت ١٩٩٤م، ص ٢٢

(١١) فن السيرة، ص ص ٩٣، ٩٤

(١٢) المصدر السابق نفسه، ص ٩٥

(١٣) المصدر السابق نفسه، ص ٩٥

(١٤) تشريح النقد، نورثروب فراي، ترجمة محمد عصفور، منشورات الجامعة الأردنية، ط١، عمان، ١٩٩١م، ص ٤٠٦

(١٥) فن السيرة، ص ص ٩٩، ١٠٠

(١٦) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، يحيى إبراهيم عبد الدايم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٥م، ص ص ١٠، ١١

(١٧) فن السيرة، ص ٩٦

(١٨) المصدر السابق نفسه، ص ٩٦

(١٩) الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص ٩

(٢٠) فن السيرة، ص ص ٩٨، ٩٩

(٢١) المصدر السابق نفسه، ص ٩٩

(٢٢) المصدر السابق نفسه، ص ٩٥

(٢٣) السيرة الذاتية، فن شامل ومدرسة في التربية والتوعية والتوجيه، محمد صالح الشنطي، مجلة البحوث التربوية، كلية المعلمين بحائل، السعودية، العدد ٦، ص٧٩

(٢٤) التراجم والسير، ص ٩

(٢٥) فن السيرة، ص ص ١٠١، ١٠٢

(٢٦) انظر المصدر السابق نفسه، ص ٩٢

(٢٧) المصدر السابق نفسه، ص ١٠١

(٢٨) المصدر السابق نفسه، ص ١٠١

(٢٩) المصدر السابق نفسه، ص ١٠١

(٣٠) المصدر السابق نفسه، ص ١٠٣

(٣١) المصدر السابق نفسه، ص ١٠٤

(٣٢) السيرة الذاتية في الأدب العربي، فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا، تهاني شاكر، دار الفارس للنشر والتوزيع، ط١، عمان، ٢٠٠٢م، ص ٧٤

(٣٣) فن السيرة، ص ١٠٥

(٣٤) فن التراجم والسير الذاتية، أندريه موروا ترجمة وتقديم وتعليق أحمد درويش، مطبعة الهيئة العامة لشئون الطبع الأميرية (المجلس الأعلى للثقافة)، مصر، ١٩٩٩م، ص ١٠٣

(٣٥) المصدر السابق نفسه، ص ١٠٥

(٣٦) المصدر السابق نفسه، ص ١١١

(٣٧) المصدر السابق نفسه، ص ١١١

(٣٨) لماذا يشقى الإنسان ؟، علي أدهم، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، ط١، مصر، د ت، ص ٢٥٩

(٣٩) فن السيرة، ص ١١٢

(٤٠) أدب السيرة الذاتية، عبد العزيز شرف، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٧

(٤١) فن السيرة، ص ص ١١٣، ١١٤

(٤٢) المصدر السابق نفسه، ص ص ١١٢، ١١٣

(٤٣) المصدر السابق نفسه، ص ١١٤

(٤٤) المصدر السابق نفسه، ص ١١٥

(٤٥) المصدر السابق نفسه، ص ١١٨

(٤٦) نظرية الأدب، رينيه ويليك وأوستن وارين، ترجمة عادل سلامة، دار المريخ، الرياض، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م، ص ١١١

(٤٧) فن السيرة، ص ١١٨

(٤٨) أدب السيرة الذاتية، ص ٤٥

(٤٩) فن السيرة، ص ١٢٦

(٥٠) المصدر السابق نفسه، ص ١٢٦

(٥١) المصدر السابق نفسه، ص ١٢٨

(٥٢) غربة الراعي والبحث عن هوية، إبراهيم السعافين المجلة الثقافية، الجامعة الأردنية، العدد ٩١، ٢٠١٧م، ص ١٦٤

(٥٣) غربة الراعي، سيرة ذاتية، ص ٥

(٥٤) إحسان عباس.. منهج الناسك، حسين بافقيه، صحيفة مكة المكرمة، السعودية، ٢٧ فبراير ٢٠١٦م

(٥٥) غربة الراعي، سيرة ذاتية، ص ٢٦٣

(٥٦) المصدر السابق نفسه، ص ٢٦٤

(٥٧) المصدر السابق نفسه، ص ٢٦٣

(٥٨) المصدر السابق نفسه، ص ٢٦٣

(٥٩) الدكتور إحسان عباس أديبًا ومعلمًا(٢)، يعقوب يوسف الغنيم، جريدة النهار الكويتية، ٢ نوفمبر ٢٠١٦م

(٦٠) غربة الراعي، سيرة ذاتية، ص ٨

(٦١) المصدر السابق نفسه، ص ٢٦٨

(٦٢) انظر أمثلة على ذلك المصدر السابق نفسه، ص ص ٤٧، ١٠٤، ١٥٠

(٦٣) غربة الراعي، سيرة ذاتية، ص ٢٠٩

(٦٤) مقابلة شؤون عربية مع الدكتور إحسان عباس، رشاد أبو شاور، مجلة شؤون عربية (جامعة الدول العربية، الأمانة العامة)، المجلد ١٩، العدد ٢٠، ١٩٨٢م، ص ٣٢٦

(٦٥) غربة الراعي، سيرة ذاتية، ص ٢٦١

(٦٦) المصدر السابق نفسه، ص ٢٠٧

(٦٧) انظر على سبيل المثال، المصدر السابق نفسه، ص ٧٣

(٦٨) غربة الراعي، سيرة ذاتية، ص ٢٢٠

(٦٩) المصدر السابق نفسه، ص ص ٢٤٠، ٢٤١

(٧٠) انظر المصدر السابق نفسه، ص ٢٤٦

(٧١) المصدر السابق نفسه، ص ٢٤٦

(٧٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٥١

(٧٣) غربة الراعي والتغريبة الفلسطينية، ختام سعيد سلمان، مجلة جامعة القدس المفتوحة للبحوث الإنسانية والاجتماعية، جامعة القدس المفتوحة، العدد ١٣، حزيران ٢٠٠٨م، ص ٣٦٢

(٧٤) غربة الراعي، سيرة ذاتية، ص ٢٣٢

(٧٥) المصدر السابق نفسه، ص ٢٢٨

(٧٦) المصدر السابق نفسه، ص ٢٦٢

(٧٧) المصدر السابق نفسه، ص ٧

(٧٨) انظر أمثلة في ذلك، المصدر السابق نفسه، ص ص ١٧ – ٢٠، ٦٦

(٧٩) المصدر السابق نفسه، ص ٢٣٠

(٨٠) المصدر السابق نفسه، ص ٢٣٠

(٨١) المصدر السابق نفسه، ص ١٦

(٨٢) المصدر السابق نفسه، ص ٣٨

(٨٣) المصدر السابق نفسه، ص ٣٨

(٨٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٢٥

(٨٥) المصدر السابق نفسه، ص ١٣٤

(٨٦) فن التراجم والسير الذاتية، ص ١٠٣

(٨٧) المرجع السابق نفسه، ص ١٠٣

(٨٨) غربة الراعي، سيرة ذاتية، ص ٨٢

(٨٩) المصدر السابق نفسه، ص ١٥٧

(٩٠) غربة الراعي والبحث عن هوية، ص ١٦٤

(٩٠) غربة الراعي، سيرة ذاتية، ص ١٥٣

(٩٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦

(٩٣) المصدر السابق نفسه، ص ٦

(٩٤) المصدر السابق نفسه، ص ص ٢٤٧ – ٢٥٠

(٩٥) المصدر السابق نفسه، ص ص ١٨١، ١٨٢

(٩٦) المصدر السابق نفسه، ص ٢٦٤

(٩٧) جراحات الرجل الكبير في عالم صغير، إحسان عباس في "غربة الراعي"، إبراهيم نصر الله، مجلة الآداب، السنة ٤٤، العدد ٧، ٨، ص ٧٠

(٩٨) غربة الراعي، سيرة ذاتية، ص ٢١٣

(٩٩) انظر على سبيل المثال ص ٨٣، ٩٩

(١٠٠) المصدر السابق نفسه، ص ٢٣٩

(١٠١) المصدر السابق نفسه، ص ٢٣٩

قائمة المصادر والمراجع

١. إحسان عباس.. منهج الناسك، حسين بافقيه، صحيفة مكة المكرمة، السعودية، ٢٧ فبراير ٢٠١٦م

٢. أدب السيرة الذاتية، عبد العزيز شرف، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ١٩٩٢م .

٣. التراجم والسير، محمد عبد الغني حسن، دار المعارف، ط٢، مصر، ١٩٦٩م .

٤. الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، يحيى إبراهيم عبد الدايم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٥م .

٥. تشريح النقد، نورثروب فراي، ترجمة محمد عصفور، منشورات الجامعة الأردنية، ط١، عمان، ١٩٩١م .

٦. جراحات الرجل الكبير في عالم صغير، إحسان عباس في "غربة الراعي"، إبراهيم نصر الله، مجلة الآداب، السنة ٤٤، العدد ٧، ٨، (ص ص ٦٩ – ٧٠)

٧. الدكتور إحسان عباس أديبًا ومعلمًا(٢)، يعقوب يوسف الغنيم، جريدة النهار الكويتية، ٢ نوفمبر ٢٠١٦م

٨. السيرة الذاتية، فن شامل ومدرسة في التربية والتوعية والتوجيه، محمد صالح الشنطي، مجلة البحوث التربوية، كلية المعلمين بحائل، السعودية، العدد ٦، (ص ص ٧٩ – ٨٨)

٩. السيرة الذاتية في الأدب العربي، فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا، تهاني شاكر، دار الفارس للنشر والتوزيع، ط١، عمان، ٢٠٠٢م .

١٠. السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، فيليب لوجون، ترجمة وتقديم عمر حلي، المركز الثقافي العربي، ط١، بيروت ١٩٩٤م .

١١. غربة الراعي، سيرة ذاتية، إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع ، ط١، عمان، ١٩٩٦م .

١٢. غربة الراعي والبحث عن هوية، إبراهيم السعافين المجلة الثقافية، الجامعة الأردنية، العدد ٩١، ٢٠١٧م، (ص ص ١٦٣ – ١٧٠)

١٣. غربة الراعي والتغريبة الفلسطينية، ختام سعيد سلمان، مجلة جامعة القدس المفتوحة للبحوث الإنسانية والاجتماعية، جامعة القدس المفتوحة، العدد ١٣، حزيران ٢٠٠٨م، (ص ص ٣٥٥ – ٣٩٠)

١٤. فن التراجم والسير الذاتية، أندريه موروا ترجمة وتقديم وتعليق أحمد درويش، مطبعة الهيئة العامة لشئون الطبع الأميرية (المجلس الأعلى للثقافة)، مصر، ١٩٩٩م .

١٥. فن السيرة، إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط١، عمان، ١٩٩٦م .

١٦. لماذا يشقى الإنسان ؟، علي أدهم، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، ط١، مصر، د ت .

١٧. مقابلة شؤون عربية مع الدكتور إحسان عباس، رشاد أبو شاور، مجلة شؤون عربية (جامعة الدول العربية، الأمانة العامة)، المجلد ١٩، العدد ٢٠، ١٩٨٢م، (ص ص ٣٢٥ – ٣٣٤)

١٨. نظرية الأدب، رينيه ويليك وأوستن وارين، ترجمة عادل سلامة، دار المريخ، الرياض، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.